وتمسكتم بالموصلات الى النار . وغضب الجبار . فاسموا للعز والشرف والفخار . وتمسكوا بالمدخلات في رضوان الله وجنته دار القرار . فالله الله في أنفسكم أيها المسلمون . والتوبة مقبولة والرحمة مبسوطة والطريق ممهد لايخيب فيه السالكون . والسرعة السرعة يا خير الامم . قبل أن يؤخذ بالكظم . وتندموا فلا ينفعكم الندم . واذكروا قوله تعالى — ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم — وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون — واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون — ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون — واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور — واذكروا اذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين — ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا — واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون — فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون

الفهم والتفاهم

كنا نود أن لا يأتي الزمان شاهداً بليغاً بصحة ما كنا نقول ونصف من مضار الابتعاد عن الفهم والتفاهم ، أما وقد أتى الزمان بهذه الشهادة التي سمعتها كل أذن فنحن غير ضانين باعادة التذكير على الحياة التي يرجى شيء منها لقومنا في الأيام الآتية تكون في تقويم أحسن ، وشكل أمتن .

عهدنا القوم يقولون نحن نؤمن أن البارئ عز وجل قد أكرمنا بهداية عظيمة ولكننا لانفهمها الا بواسطة فلان وفلان وتتعدد الذين هم أئمة ومقتدون لهم وأبناهم متباغضين أشد التباغض ، ومتنافرين أشد التنافر وما ذلك الا لان فهم الامام فلان قد خالف فهم الامام فلان ولكل منهم امام معلوم ، وأعظم هذا الافتراق قد وقع

بين الذين يسمون الشيعة وبين الذين يسمون السنية ، ولم ينمُ ويترعرع ذلك بين هاتين الفئتين الكبيرتين الا بسبب عدم التفاهم ولم يبعدهم عن التفاهم الا قول كل واحد من كل فريق منهم « نحن لا نفهم » فلست أدري اليوم من بعد أن رأوا ما نزل بساحتهم أيبقى باب الفهم والتفاهم مسدوداً فيما بينهم ، أم يتشاءمون بذلك السد ويرجون ما ترجوه الامم الفاهمة من فوائد الفهم والتفاهم

ثم لست أدري أيبقون مصرين على سد ذلك الباب وان أصبح البيت خراباً أم يلهمهم الله معرفة أن الفهم والتفاهم ليسا بمحالين كما ظنوا ؟ وكذلك لست أدري ماهي الفوائد التي ينتظرونها من ذلك السد بعد ان أدى الافتراق والابتعاد عن الفهم الى ماصار اليه هؤلاء المفترقون الذين يقولون نحن أهل ملة واحدة وما أدراك ماصار اليه هؤلاء أجمعون ؟ انهم صاروا الى أسوأ ما تصير اليه الامم

نحن لا نقصد بهذا تقريعاً ، ولا نرمي به الى وقيعة ، فغفرانك اللهم أن علق شيء من هذا بنيتنا ، أو مس خواطرنا ، كلا بل ليس قصدنا الا التذكير وما نحن بناسين ــ وقد أخذ ــ ما للناس من العذر في ذلك الموقف الذي وقفوه قروناً متطاولة ، أعني به موقف الاقتداء بالآباء والجدود فيما تعلقوا به من تقديس فهوم بعض المتقدمين والتبري من فهومهم أنفسهم فان استعداد أكثر الناس آخذ بهم الى مثل هذا

أي والله أنا نقصد التذكير لا التقريع ، ولكي نزيد هذا تأكيداً نصف هنا كيف يخلص التقليد الى أكثر النفوس ، وكيف يخلص منه بعضها . فاقرأه أيها الأخ وأنت ذاكر سنن ربك عز وجل تخرج منه الى ثمرة عظيمة النفع ان شاء الله تعالى

***

كان الناس أمة واحدة في أوائل أمرهم فما لبثوا ان أتت عليهم المفرقات فأصبحوا أمماً في الأوطار والأفكار ، كما صاروا أمماً في الأوطان والديار ، وأعظم ما طرأ عليهم من المفرقات هو الفضل الذي يوجد في علوم بعضهم على علوم الآخرين ولو شاء الله تعالى أن يكونوا جماعة واحدة فحسب لفطرهم على نحو ما فطر سائر أنواع الحيوان من تساوي أفراد كل نوع منها في المدارك تقريباً ، أما وقد جعل الفاطر عز وجل بين أفراد النوع الانساني هذا التباين العظيم في الادراك والاحاطة فانا نفهم حينئذ أنه سبحانه قد قضى أن لا يكون الناس أمة واحدة فكانوا على ماتراهم عليه أمماً وجماعات ولله سبحانه الحكمة البالغة ، على أنه قد لطف بعباده فخلق لهم مع أسباب التفريق أسباب الجمع ، وكما جعل في تفاوت الادراك شيئاً من الضرر قد

جعل فيه ذرواً من النعم ، فمن كانت شهوته من فلاسفة الانسانية أن يكون البشر على عقل واحد فانما يتيسر له ذلك باعدام كل من يخلق في مداركه شيء من الفضل على مدارك غيره ، أما الذين عافاهم الله تعالى من تلك الشهوة فأولئك يعلمون أن هذا النوع لم تمزق أوصاله بتفرعه الى أمم معدودة محدودة ممدودة كلا ! بل بسقت بذلك دوحته وعظم أصلها وازدادت قوتها وأصبحت بحيث لا يضيرها أن تذبل بعض فروعها

نعم . نعم قد خلق الفاطر سبحانه أسباب الجمع كما خلق أسباب التفريق ومن جملة أسباب الاثنين معاً ذلك الاقتداء الذي جعله غريزة في البشر جامعة شديدة الالتصاق ، فبما توحيه هذه الغريزة يمشي الملايين من الابناء والبنات على ما عليه مشت الملايين من الآباء والامهات ، ويظلون على ذلك عصوراً كثيرة من غير ما تغيير ولا تبديل الا قليلا لا يكاد يعد مفرقاً لشمل هذا الجمع العظيم . وهكذا يكون شأن سائر الجموع والامم كما هو مشاهد ، وبما خص به العقل الانساني الذي جعله الله جوالاً ولم يوزعه على الافراد بالسوية نرى أنه مهما وقف الاقتداء بالملايين من بني آدم عند الحد الذي وقف فيه آباؤهم يقوم أحياناً فرد من بين تلك الملايين تتقد فيه جذوة من ذلك المشرق العقلي وتدفعه الى التماس ما هو أحسن مما وقفت عنده أمته وحينئذ يجدهم معارضين له فان نجحوا أخمدوا جذوته ، وان نجح دخل بأمته في خلق جديد ، أو خرج منها بأمة حديثة في الوجود ، وقلنا لا يذم الاقتداء من حيث هو مطلقاً لانه قد يوقف الامم وقفة واحدة ، ولا يمدح مطلقاً لانه به تتكون أمم وبه تتنقل في أطوارها ، وأنت تراه تارة صديق النوابغ اذ لولاه لما وجدوا تابعاً ومظاهراً ، ولولاه لما ظهرت مقادير هممهم عند مقاومة الاجيال لهم ، وطوراً تراه عدوهم اذ لولاه لما وجدوا تلك العقبات الهائلة في سبيل الاصلاح ولاجل هذا ترى الذين ينظرون الى الامور من جهة واحدة منهم من يحسب فيه كل الفوائد ومنهم من يخال كل المضار فيه . أما الذين يمعنون نظراً في الاشياء ويسلم نظرهم من شوائب الهوى الخاص فأولئك يعرفون انقسام أكثر الاشياء الى أجزاء أو جهات بعضها نافع وبعضها ضار ويعرفون المقادير والحدود التي بينها فيعطون كل شيء حقه ، ويذكرون له حده . فاذا مر هؤلاء باقتداء ضار ذكروا بالعقل وقالوا ان الانسان لا يليق به الجمود ، واذا مروا باقتداء نافع ذكروا بالفضل الذي جرت سنة الفاطر أن يمنحه بعض الافراد وتبرءوا من الجمود ، ألا ترى القرآن المجيد كيف يقص من مناقب الانبياء لاكرم رسله محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقول

له « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » أولا تراه كيف عاب على الذين صدهم اقتداؤهم بآبائهم من الايمان بفضل الله تعالى الذي خص به الانبياء عليهم السلام وكيف هزّ عقولهم هزة قوية بقوله « أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون »

هذا واذ كان المقتدى الأعظم في الملة الاسلامية هو ذلك الوحي الذي نزل على محمد الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم كان من شأن الذين يتخذون مقتدين آخرين سواه أن يكون ضرر اقتدائهم ذلك أكثر من نفعه لأن المتمذهب بمذهب رجل من الذين يقال لهم أئمة السنة إن قال إن مقتداي رجل من علماء السلف الابرار ، يجد تجاهه مخالفاً من الذين يقال لهم الشيعة يقول له إن مقتداي أيضاً رجل من علماء السلف الابرار ، ولا يستطيع الذي يسمي نفسه سُنّياً مثلا أن يقول إن الامام جعفراً أو الامام زيداً رضي الله تعالى عنهما ليسا من علماء السلف الابرار ، وانما قصاراه أن يقول إن هؤلاء الذين يقال لهم الشيعة ليسوا في الحقيقة على مذهب جعفر أو زيد وهذا لايلتفت اليه الجعفري أو الزيدي وليس هو من المناظرة القانونية في شيء .

ومن أعجب ما في مضارّ هذا الافتراق الذي جاء به هذا التقليد أنك أصبحت ترى جميع أقطاب الامة وكبار علمائها مرنوا بسببه على اليأس من الصلح بين هاتين الفئتين الكبيرتين في الامة حتى كأن هذا الامر أي الصلح بينهما ليس مما يعني الامة وليت شعري كيف يتيسر الصلح ما دام باب التفاهم مسدوداً ، وكيف يفتح باب التفاهم ما دام الجماهير جيلا خلف جيل لا يجول أفكارهم في مسألة من المسائل ولايقولون فيها بقول من الاقوال الا قول رجل من أولئك الرجال القليلين الذين اتخذوهم مقتدين ، هذا على تسليمهم بأن فلاناً وفلاناً الذين ينسبونهم لم يحصلوا في فهومهم تلك إلا ظنا وعلى تسليمهم أن الحق ليس في ظنونهم تلك على وجه اليقين والجزم والتعيين ، فإلى متى يا قوم هذا ومتى تأذنون بفتح باب الفهم والتفاهم ؟

عبد الحميد الزهراوي

حاشية للكاتب ــ اني الهمت بجمع هذه المقالة على أثر اطلاعي على كتاب (العلم الشامخ) الذي نعم في هذه الايام واني رأيت أن مطالعته تفيد كثيراً في زحزحة مطالعه عما ألفه من التقليد الضار الذي يحول بينه وبين الفهم والتفاهم ويشوش عليه الاتجاه الذي يوجبه الدين فمن أحب أن ينال حظاً من العلم الصحيح فليس به عن تدبر واستقلال